

## مقدمة

أحزن المرأة أن تقبع في دارها والرجال وحدهم في ميدان الفداء يبتغون الشهادة لنيل رضوان الله . . سرت فيها روح الغيرة من شقائنها الرجال الذين فرض عليهم الجهاد والقتال . . ونزل بشأنهم آيات من الذكر الحكيم تؤكد فضل المجاهد، ومكانة الشهيد.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١)، ويقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ تَوَسَّلُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ سَبِيلَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ (٢).

ورسول الله ﷺ حين سئل عن أفضل الناس، قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى» (٣).

وانطلقت نقيبة النساء - عائشة ؓ - تعبر عن لسان حالنا . . تتحدث بما يدور بخاطري الآن وبعد أربعة عشر قرناً، وجلست إلى رسول الله ﷺ تسأله، وتصيح إليه، كي تدرك ونعلم، ونعمل بما نعلم . . قالت عائشة ؓ: «يا رسول الله نرى الجهاد أفضل الأعمال . . أفلا نجاهد؟» فقال ﷺ: «لكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور». ثم أعادت السؤال عليها تدرك جواباً مؤكداً كي تهنا بهذه المساواة . . فقالت ؓ: «يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟» فقال ﷺ: «عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة» (٤).

(١) سورة النساء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الإمارة ٣/١٥٠٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٦/١٦٥.

وها هي أم معقل الصحابية . . تروي أمراً يؤكد مكرمة النساء . . قالت: «لما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، كان لنا جمل فجعله أبو معقل في سبيل الله، وأصابنا مرض، وهلك أبو معقل، وخرج النبي ﷺ فلما فرغ من حجه جثته فقال: «يا أم معقل، ما منعك أن تخرجي معنا؟» قالت: لقد تهيأنا فهلك أبو معقل، وكان لنا جمل هو الذي نحج عليه، فأوصى به أبو معقل في سبيل الله، قال رسول الله ﷺ: «فهلأ خرجت عليه؛ فإن الحج في سبيل الله، فأما إذا فاتتكم هذه الحجة معنا فاعتمري في رمضان فإنها كحجة»<sup>(١)</sup>.

وبمقتضى هذا الحكم جمعت المرأة بين الحسينيين، فريضة الحج، وفريضة الجهاد، لئنال ثوابهما معاً، إن اهتدت بهدي الله، وترسنت شريعته متبعة تعاليم ابننا الحنيف، فتؤدي مناسك الحج على خير وجه.

وقد آثرت هنا أن أقدم رحلة الجهاد لأختي في الله مستجلية حكم الله في كل جزئية منها ما استطعت، مستضيئة بالقبس الساطع المتمثل في الكتاب والسنة المطهرة، وآراء أئمة المذاهب في ذلك. ولم أخاطب المرأة كما خاطبها شقائقي من الرجال باعتبارها مناط تكليف فحسب - هذا ما لها، وذاك ما عليها - بل جعلت لها موضعها الذي أكرمها الله به . . في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَيْنَهُمْ أَبْوَابٌ مُقَدِّمَةٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

فخاطبت فيها فكراً متأججاً، وروحاً ظمأى، وعقلاً بكرأ لم يوهن بفعل الزمن، ولم ينضب معينه، إذ لم تكشف بعد نفائسه.

لذا أعطيت نفسي حقاً آخر بأن أنطلق إلى سفرة عبر الزمن الغابر، كي أتعرف على أصل هذه الفريضة التي جعلها الله مكملة لبناء الإسلام، ومتممة لإسلام المسلم.

ووقفت على أول الطريق حين رأيت اللافنة النورانية . . تقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب المناسك ٢/٢٠٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

أجل من هنا أبدأ رحلتي عبر الزمن . . ورحت في سفرتي أنقب وأفتش فلم أجد متعظفاً إلا ودلفت إليه وكلما خلت أنتي بلغت مأربي أجد نفسي عند معبري الأول، وأخيراً انتهيت إلى أن البيت أصل من أصول الحياة على هذا الكوكب، جعله الله مرفأً لآدم الذي حرم الجوار في السموات العلا . . بعدما اغتسلت الأرض بهتان ندمه وتوبته، جعله الله له ولذريته من بعده ليكون مركز إرسال متصل لخلائق ترجو مغفرة من رب رحيم يقبل توبة التائبين، وهو أيضاً مركز قيادة روحية يتوجه إليه الناس من كل فج عميق تارة بالأبدان وفي وقت معلوم، وزمن مرقوم، وتارة بالأرواح والأقنودة عبر شفرة وجدانية تتوهج إبان صلوات تقام أطراف النهار وزلفاً من الليل.

ولم أشأ أن أتعرف على معمر هذا البيت ومجدد أروقته، فرأيت المرأة في أبهى حللها وأكمل زينتها المعنوية تقف وراء إبراهيم الخليل الزوج. وكانت رحلتي الأولى عبر التاريخ . . وقادتني رحلتي في أعمال الماضي البعيد الموصول بانحاضر الممتد إلى قمة التأمل فأشعلت الضوء الأخضر كي أرى - بروح المحب - قيساً من أسرار التشريع، واصلاً إلى روح العبادة.

وبالحضور الوجداني وحده تدرك المعاني، وتكشف الأسرار، فوجدت نموذجاً يفيض بالعبر لرحلة الحياة والموت، ورحلات آخر امتد إليها قطاري الزاحف على قضبان فكري.

ثم عدت إليك يا أختاه، لأعد لك زادك، وأهيبك لك أسباب ترحالك، وأضع بين يديك حل كل قضية قد تشغل ذهنك، وتقض مضجعك، وتجعلك في شك من تمام عبادتك، وذلك من خلال عرض مفصل لرحلة التكليف مع عرض آراء الفقهاء في كل قضية فيها.

لعلي أكون بذلك قد وفيت شيئاً يسيراً تجاه المنعم الذي حباننا بوافر نعمه كل الخير.

الدكتورة عبلة محمد الكحلوي